﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 87 - 89]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد دعواتِ إبراهيمَ الخليلِ المخلصِ إلى ربِّه، والتي كانت كلُّها مطالبَ إيجابيَّة؛ اتَّجه بعد ذلك إلى مطالب سلبيَّة مانعة، فقال عليه السلام، كما ذكر القرآن: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾[1]، فلَمّا نَبَّهَ على أنَّ المقصودَ الأسمى هو الآخرةُ؛ صَرَّحَ بالتَّزهيدِ في الدُّنيا بتحقيرِ أجَلِّ ما فيها، وهو المالُ والولد، فقال: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾[2].

بعد دعواتِ إبراهيمَ الإيجابيَّة؛ نبَّهَ على المقصودِ الأسمى، وهو النَّجاة في الآخرة

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُخۡزِنِي﴾: (خزي) أَصْلُ الخِزْي ذلٌّ يُسْتَحى منه؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في الذُّلِّ والاسْتِحْياء[3]، وقيل: أَصلُهُ: الإبعادُ، فقولُهُم: أَخْزاهُ اللّه، أَي: أَبْعَدَهُ ومَقَتَهُ[4]، والخِزْيُ: الفَضيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا؛ إذا افْتَضَح، وتَحيَّر فضيحَةً[5]، والخِزْيُ أيضًا: السّوءُ[6] والهَوانُ[7]، والمقصود بالخزي في الآية: الفضيحةُ والذُّلُّ.

2) ﴿يُبۡعَثُونَ﴾: أصلُ (بعث) هو إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهه[8]، والبَعْثُ: الإحياءُ مِنَ اللّه للمَوْتى، وبَعَثَ اللّهُ الخَلْقَ: نَشَرَهُم، والبَعْثُ: الرَّسولُ، وبَعَثَهُ على الشَّيْءِ: حَمَلَهُ على فِعْلِه، وبَعَثَ عليهِمُ البلاءَ: أَحَلَّهُ، وانْبَعَثَ الشَّيءُ، وتَبَعَّثَ: انْدَفَع، وبَعَثَهُ مِنْ نَوْمِه: أَيْقَظَهُ،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5370.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 371.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (خزي).
(7) الزّبيدي، تاج العروس: (خزي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

وأَهَبَّهُ[1]، وقد غلَبَ البَعْثُ في اصطلاحِ القُرآنِ على إحضارِ النّاسِ إلى الحِسابِ بَعْدَ الموتِ، وهو المُرادُ بهِ في الآيةِ[2].

3) ﴿أَتَى﴾: أصلُ الإتيانِ: مجيءٌ بسهولة، ومنه قيلَ للسَّيل المارِّ على وجهه: أَتِيٌّ وأَتاوِيٌّ، والإتيان قد يُقالُ للمجيءِ بالذّات، وبالأَمرِ، والتَّدبير، ويُقالُ في الخير، وفي الشَّرِّ، وفي الأَعيان، وفي الأَعراض[3]، والإتيانُ إلى اللّه الإحضارُ في مكانِ قضائه، وتقول: أَتَيْتُ الأمرَ من مَأْتاتِهِ، أي: من وجهه الَّذي يؤتى منه[4]، وأمّا المرادُ بالإتيان في الآية؛ فالمجيء والحضور.

4) ﴿سَلِيمٍ﴾: أصلُ (سلم) يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافية[5]، فالسِّلْمُ والسَّلامَةُ: التَّعرّي من الآفات الظّاهرة والباطنة، وقوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، أي: مُتعرٍّ من الدَّغل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: 71]، فهذا في الظّاهر، وقد سَلِمَ يَسْلَمُ سَلامَةً، وسَلامًا، وسَلَّمَهُ اللّه[6]، والمُرادُ بالسَّليم في الآية: الموصوفُ بقوَّةِ السَّلامةِ، أي: الخُلوصُ من عقائدِ الشِّركِ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

طلبُ إبراهيمَ من ربِّهِ ألّا يفضحَهُ يومَ القيامة حيث لا ينفعُ مالٌ ولا بنون

يُكمِلُ إبراهيمُ عليه السلام دعواتِهِ بقوله: ولا تَفْضَحْني يومَ القيامةِ حينَ تَبعَثُ عِبادَكَ لفصلِ القضاءِ، يومَ لا ينفَعُ العَبدَ فيه مالُهُ ولا أبناؤُهُ، إلّا مَن لَقيَ اللّهَ يومَ القيامةِ، وقَلبُهُ خالِصٌ مِنَ الشِّركِ والشَّكِّ، والعقائدِ الباطِلةِ، والأوصافِ الذَّميمةِ والإراداتِ الفاسدةِ[8].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 244.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (أتي)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 43.
(4) الجوهريّ، الصحاح: (أتي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(6) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سلم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 150.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 595، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 114، 115، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 149.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾:

دعـاءُ إبراهيـمَ بالـهدايةِ لأبيه لـخـوفـهِ من الـخـزي يـومَ القيامة

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[1]، والجامعُ بينهما: أنَّ هدايةَ اللهِ لوالدِ إبراهيم يومَ يُبعثُ النّاسُ كافَّةً سببٌ لعدمِ وقوعِ إبراهيم عليه السلام في الهوان، أو أنْ يكون الجامعُ بينهما: أنَّ الضَّميرَ في ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ عائدٌ على الضّالين، أي: إنَّ الكلام فيهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾، فيكون عطفًا على (واغفر لأبي) ومن تتمَّته، فإنَّ المَعْنَى: ولا تخزني يوم يُبعَثُ الضّالون، والحالُ أنَّ أبي منهم[2].

غرضُ الطلب في قوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾:

نـهـيٌ تَـعـطُّـفٍ والـتـمـاسٍ يـدلُّ على كمالِ الأدبِ من الخليلِ عليه السلام

جاءت جملة: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ بطريقة الإنشاء، وقد خرجَ عن معناه الحقيقيِّ إلى معنًى مجازي، وهو الدُّعاء والابتهال من قِبلِ إبراهيمَ الخليل متعطِّفًا وملتمسًا من الله ألّا يخزيَهُ يوم الحساب، وكيف يُتصوَّر أنْ يخزيه اللهُ تعالى، وهو رسوله؟ والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النَّحل: 27]، أي: ما كان نصيب الكفار فقط، فكيف يخافهُ المعصوم؟ والجواب: أنَّ هذا الدُّعاءَ من إبراهيم إنَّما هو لفرطِ إحساسه عليه السلام بحقِّ الله تعالى حتى يظنَّ في نفسه القصورَ، ومعه الخزي، فإنَّ دقَّةَ الإحساس تجعله يستصغرُ حسناتِهِ في جنبِ الله تعالى العزيز الحكيم، وكلَّما قربَ الإنسانُ من الله تعالى؛ أحسَّ بقصوره، ولا يحسُّ بعظمةِ ما فعل، ويحسبُ أنَّه من المقصِّرين، لا من المقرَّبين الصادقين[3]، فكما أنَّ حسناتِ الأبرارِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5371.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 264.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5371.

سيِّئاتُ المقرَّبين، فكذا درجاتُ الأبرارِ دركاتُ المقرَّبين[1]، وهذا من كمالِ مقامه عليه السلام وأدبِهِ مع اللّه سبحانه.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾:

دعـاءُ إبـراهيـمَ عليه السلام بـنـفـي الخزي عنه يومَ القيامةِ هو دعاءٌ جامعٌ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ الخزي، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، دون غيره من الألفاظِ كـ (الهوان أو الفضيحة أو الخذلان أو الذل)؛ لاتِّساع دلالة الخزي ومناسبته للسّياق؛ إذ أصلُ الخِزي ذلٌّ يُستحى منه، وقيل: أصلُه الإبعاد، فقولهم: أخزاه اللّهُ، أي: أَبْعَدَهُ، ومَقَتَهُ، وقولهم: خَزِيَ الرَّجُلُ: اسْتَحْيا مِنْ قُبْحِ فِعْلِهِ، وذلك أَنَّهُ إذا فعل ذلك، واسْتَحْيا؛ تَباعَدَ، ونَأَى[2]، وقيل: أصلُهُ من قولهم: خزيَ الرَّجلُ: لحقه انكسارٌ إمّا من نفسه أو من غيره[3]، ومن معاني الخِزْي أيضًا: السّوءُ، والهوانُ، والذُّلُّ، والفضيحةُ، والقهر، وقد يكون بمعنى: الهَلاكِ والوُقوعِ في بَلِيَّةٍ[4]، وهذه المعاني كلُّها تتناسبُ مع السّياق الذي يظهرُ فيه أنَّ المقصودَ بدعاء إبراهيم بعدم الخزي يوم القيامة ألّا يلحقَهُ أيُّ انكسارٍ أو افتضاحٍ بسببِ كفرِ أبيه، وكذلك دعاءُ إبراهيم عليه السلام بنفي الخزي عنه يوم القيامة هو دعاءٌ جامعٌ بنفي أيِّ ذلٍّ وأيِّ هوانٍ وقهر، وأيِّ بُعدٍ وهلاكٍ وعذابٍ ومقتٍ من اللّه يمكن أن يلحقَهُ يوم البعث.

دلالةُ المضارعِ في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾:

دعـاءٌ والتماسٌ من إبراهيم عليه السلام بـألّا يخزيه اللهُ يومَ البعث

أتى البيانُ القرآنيُّ بالفعل المضارع المسبوق بحرف (لا) الدُّعائيَّة الجازمة[5]، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، وهو دعاءٌ والتماسٌ من إبراهيم عليه السلام بألّا يخزيَهُ اللّه يوم البعث، وقد أفاد

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 517.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس: (خزي).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خزي).
(4) الزّمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزى).
(5) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 268.

التَّعبيرُ بالمضارع الدُّعاءَ باستمرارِ انتفاءِ الخزي عنه في المستقبل، أي: يومَ القيامة، وهذا يستلزمُ استمرارَ الكرامة له يومئذٍ.

نوعُ الإضافةِ ودلالتها في قولِه: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾:

دعـاءُ إبراهيمَ بعـدمِ الخـزي مقيَّدٌ ومختصٌّ بيـومِ البعث، فهـو المـقـصـودُ الأسمى

أضافَ إبراهيمُ ﷺ إلى دعائه - بألّا يخزيه اللّهُ - قيدَ ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، وهي إضافةٌ بيانيَّة بيَّنت أنَّ دعاءه ﷺ بعدم الخزي مقيَّدٌ ومختصٌّ بيومِ البعث لا الدُّنيا؛ إذ الدُّنيا مظهرُ اسم الستّار[1]، وفي هذا التقييدِ إشارةٌ إلى مكانة الدّار الآخرةِ عند إبراهيمَ ﷺ، فهي المقصودُ الأسمى، والنَّجاة فيها هي النَّجاة الحقُّ، وأنَّ الدُّنيا دارُ زوالٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يُبْعَثُونَ﴾:

حـدثٌ عـظيـمٌ مـهـيـبٌ يـصـوِّرُ خـروجَ الـنّـاس مـن قـبـورهـم مجتمعين يوم القيامة

عبَّرَ البيانُ القرآني بلفظ البعثِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ لمناسبته للسّياق والمقام؛ إذ البعثُ في معناه اللُّغوي الإثارة والاندفاع[2]، وبَعْثُ الموتى هو إخراجهم من قبورهم إلى يوم القيامة[3]، والبعثُ هو النُّشور[4]، فهذه المعاني للبعث مضافةً إلى ﴿يَوْمَ﴾، ومجيئها بصيغة المضارع - الذي يصوِّر حالَ خروجِ النّاس من قبورهم مندفعين مجتمعين في إثارةٍ وخوف إلى أرض النُّشور يوم القيامة - ناسبَ أنْ يدعو إبراهيمُ بانتفاءِ الخزي عنه في هذا الموقف المهيبِ أمام الخلائقِ مجتمعةً، فيكون له الفوزُ والكرامةُ والنَّجاة فيه، وقد أتى الفعلُ بصيغة البناء لِما لم يُسمَّ فاعلُهُ ﴿يُبْعَثُونَ﴾؛ لتوجيه النَّظرِ إلى الحدثِ العظيم، وهو بعثُ الخلائقِ يوم القيامة، ولأنَّه معلومٌ للنّاس أنَّ هذا الفعل - وهو بعثُ النّاس - لا يملكُه إلّا هو سبحانه، ولا يصلحُ إلّا له، ولا يكون إلّا منه.

(1) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 248.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) الراغب، المفردات: (بعث).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).

عِلَّةُ الإضمارِ في قوله: ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾:

العـدولُ عن مقتضى الظّاهر تـهـويـلٌ لـيـوم البعث وتفظيعٌ له

في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ إضمارٌ، حيثُ لم يُذْكَرِ المَبعوثونَ قبْلُ، وكان مقتضى الظّاهر أنْ يُعبَّر بالاسم؛ لأنَّه لم يسبقْ له ذكرٌ، إلّا أنَّه عُدِل عنه إلى ضميره؛ لِما في عُموم البَعث مِنَ الشُّهرةِ الفاشيةِ المُغْنِيةِ عن إظهار الاسم، ولأنَّ البعثَ عامٌّ، فيدلُّ عليه، والتقدير: (ولا تخزني يوم يُبعث النّاسُ كافَّةً)[1]، أي: تكون علَّةُ الإضمار هي الإيجاز والاختصار، مع التَّهويلِ ليوم البعثِ والتفظيع له، وإذا كان الضَّميرُ يعود إلى الضّالين في الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، بحيث يُجعلُ قوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ من جملة الاستغفارِ لأبيه، أي: ولا تخزني في يوم يُبعث الضّالّون، وأبي فيهم[2]، فتكون علَّةُ الإضمار كذلك الإيجاز والاختصار.

والراجحُ هو عودُ الضمير على العباد؛ لأنَّ البعثَ عامٌّ فيهم جميعًا، ويدخلُ فيهم الضّالون، وهولُ ذلك اليوم يشملُ جميعَ الناس، ولذلك يقول أبو السعود: "إنَّ تخصيصَ البعثِ بالضّالين يخلُّ بتهويلِ ذلك اليوم"[3].

عِلَّةُ تأخيرِ دعاءِ إبراهيمَ بعدم الخزي:

خـوفُ إبـراهـيـمَ مـن بـقـاءِ أبـيـه على الكفرِ جعله يـدعـو بـعـدمِ الـخـزي بسبب ذلك

دعاءُ إبراهيمَ عليه السلام بعدمِ الخزي بعد دعائِهِ بوراثة الجنَّةِ - في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ... ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾، رغم أنَّه متى حصلت له وراثةُ الجنَّة؛ امتنعَ حصولُ الخزي - لأنَّ الدُّعاءَ بوراثة الجنَّة هو مقصودٌ أعظمُ وأهمُّ ولذلك قُدِّمَ، أو لمناسبة مجيء دعائِه بعدم الخزي بعد دعائه لأبيه ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فخوفُ إبراهيمَ عليه السلام من عدمِ هدايةِ أبيه جعله يدعو ألّا يلحقه أيُّ انكسار أو افتضاحٍ يوم القيامة بسببِ كفرِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 517، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 250، والآلوسي، روح المعاني: 19/ 100.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 320، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 569.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 251.

أبيه، ولأنَّ الخزيَ في أحدِ معانيه مأخوذٌ من الخَزايَةِ، وهي الحياءُ من قُبحِ فعلٍ له أو لغيره[1].

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾:

يوم البعث يومٌ مهولٌ لا ينفع فيه إلّا الالتجاءُ لله وحده

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ على القولِ بأنَّه من كلامِ إبراهيمَ عليه السلام، يَكونُ بدَلًا من ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[2]؛ لأنَّ العاملَ في البدلِ هو العاملُ في المبدل منه، وقد جيءَ بالبدل؛ تَأكيدًا للتَّهويلِ، وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه مِنَ الاستِثناءِ، وهو مِن أَعَمِّ المَفاعيلِ، أي: لا ينفعُ مالٌ، وإنْ كان مصروفًا في الدُّنيا إلى وجوهِ البرِّ والخيراتِ، ولا بنون وإنْ كانوا صُلحاءَ مستأهلينَ للشَّفاعةِ أحدًا ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3]، وكذلك قُصِدَ بالبدليَّة إظهارُ أنَّ الالتِجاءَ في ذلك اليَومِ إلى اللهِ وحْدَه، ولا عَوْنَ فيه بما اعتادَه النّاسُ في الدُّنيا مِن أسبابِ الدَّفعِ عن أنفُسِهم، وللبدليَّة فُصِلَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ عمّا قبلَهُ بترك العاطف؛ لكمالِ الاتِّصال.

وقيل: إنَّ الآياتِ - الَّتي أوَّلُها ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ - مُنقطِعةٌ عن كلامِ إبراهيمَ عليه السلام، وهي انتقالٌ من البيان القرآني إلى وصفِ المعاد، وهو اليومُ الَّذي وقَفَ إبراهيمُ عِندَه في دُعائِه ألّا يُخزَى فيه، فيَكون ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ استِئنافًا؛ خبرًا لمُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: (هو يومٌ لا يَنفَعُ مالٌ ولا بَنونَ)[4]، ويَظهَرُ على هذا الوجهِ أنْ يَكونَ المُرادُ بـ﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الإشارةَ إلى إبراهيمَ عليه السلام؛ لأنَّ اللهَ تعالى وصَفَه بمِثلِ هذا في آيةِ سورةِ (الصّافّات)، في قَولِه: ﴿*وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: 83 - 84][5] أي: شيعةِ نوحٍ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 517.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 997، والآلوسي، روح المعاني: 19/ 100.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 250.

(4) ومن المفسرين من أعربه بدلًا كابن عطية في المحرر الوجيز: 4/ 235، ولا يصح ذلك لاختلاف المتكلمين.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 147.

معنى ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ﴾:

المـــــرادُ نـفـيُ الانتـفـاعِ بالمال والـــولـــد يـــومَ القيامة

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ نافيةٌ مهملة، نفتْ أيَّ نفعٍ للمال والولد يمكن أنْ ينتفعَ به أحدٌ يومَ القيامة إلّا من أتى اللّه بقلبٍ سليم، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفيَ بـ﴿لَا﴾ دون (ما)؛ لأنَّ ﴿لَا﴾ تخلِّصُ المضارع للمستقبل، بينما (ما) تخلِّص المضارع للحال، والحديثُ في الآية عن يوم القيامة، وهذا يناسبه استعمالُ ﴿لَا﴾ دون (ما).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿لَا يَنفَعُ﴾:

استمرارُ انتفاءِ الـنَّـفـعِ بـالـمـال والـــولـــد يـوم القيامة تهويلٌ لذلك اليوم

عبَّرَ القرآنُ بلفظ النَّفع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ لاتِّساع دلالة لفظ النَّفع وشموله، فالنَّفعُ: ضدُّ الضُّرِّ[1]، والنَّفْعُ: الخَيْرُ، وهوَ ما يَتَوَصَّلُ بِهِ الإِنْسانُ إِلَى مَطْلوبِهِ[2]، ففي نفي النَّفعِ عن الإنسان يوم القيامة بالمال والولد مبالغةٌ في النَّفي لكلِّ خيرٍ يطلبه، أو يقصدُ به التوصُّل إلى مطلوبٍ يطلبه، والتَّعبيرُ بصيغة المضارع المسبوق بالنَّفي، في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرارِ انتفاء النَّفع ودوامه بالمال والولد يوم القيامة، لمن كان في قلبه ذرَّةٌ من كفرٍ أو نفاق، حسبما يقتضيه مقامُ التَّهويلِ والتَّفظيع[3].

سرُّ حذفِ المفعول في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ﴾:

عـدمُ نـفـعِ المـال والـــولـــد يـــومَ البعث عامٌّ لكلِّ أحدٍ

حُذِفَ مَفعولُ يَنْفَعُ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ للعلم به، كأنَّه قيل: لا ينفعُ مالٌ ولا بنون أحدًا[4]، أو لقَصدِ العُموم، كحَذفِهِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، أي: يَدْعو كلَّ أحَدٍ، فتَحصَّلَ أنَّ التَّقديرَ: (يَومَ لا يَنفَعُ أحدًا شيءٌ يَأتي به للدَّفعِ عن نفْسِهِ)[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (نفع).
(3) الهرريُّ، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 283.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 17/ 75.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 149.

سِرُّ الاقتِصارِ على ذكرِ المالِ والبَنينَ:

انتفاءُ النَّفعِ بالمال والولد انتفاءٌ لما عداهما بالأولى

الاقتِصارُ على المالِ والبَنينَ في نَفْيِ النّافِعينَ في قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، جرَى على غالبِ أحوالِ القَبائلِ في دِفاعِ أحدٍ عن نفْسِه، بأنْ يُدافِعَ إمّا بفِدْيةٍ وإما بنَجْدةٍ (وهي النَّصرُ)، فالمالُ وسيلةُ الفِديةِ، والبَنونَ أحَقُّ مَن يَنصُرونَ أباهُم، بل إنَّهما "عزُّ هذه الحياةِ الدُّنيا وزينتها، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: 46]، فالمالُ والبنون هما الزّينة التي أُعدَّت للفخر بها من أهل الدُّنيا"[1]، وهذا يقتضي أنَّ انتِفاءَ نَفْعِ ما عدا المالَ والبَنينَ مِن وسائلِ الدِّفاعِ حاصِلٌ بالأَوْلى، بحُكمِ دَلالةِ الاقتِضاءِ المُستنِدةِ إلى العُرْفِ، فالكلامُ مِن قَبيلِ الاكتِفاءِ[2]، فلا المالُ ولا البنون ولا الإخوة ولا الزَّوجة ولا الأقارب ولا السُّلطان الدنيويُّ ولا أيُّ شيءٍ ينفعُ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ عاطفة، والمعطوف عليه قوله: (مال)، بجامع أنَّ كليهما، أي: المال والبنون لا ينفعُ يوم القيامة.

سرُّ تكرارِ (لا):

تأكيدُ انتفاءِ النَّفع من المال والولد يوم القيامة تهويلٌ لذلك اليوم

كرَّر البيانُ القرآنيُّ (لا) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، فلم يقل: (يوم لا ينفع مال وبنون)؛ لإفادة توكيد النَّفي عن كلٍّ واحدة على حدة، أي: لا ينفعُ مالٌ، ولا ينفعُ بنون، وفي هذا التَّأكيد مزيدُ تهويل ليوم القيامة.

نكتةُ تقديم ﴿مَالٌ﴾ على ﴿بَنُونَ﴾:

قُدِّمَ المالُ على البنين في قوله تعالى: ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ لأنَّ الكلَّ يملكُ المالَ، ولو لم يكن إلّا ملبسه، وليس لكلٍّ واحد بنون، فقُدِّمَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 148.

الأعمُّ على الأقلِّ، ولأنَّ الأبناءَ يأتون من الزَّواج، والزَّواج يحتاجُ إلى المال، فقُدِّم الأسبق، ولأنَّ الأموالَ مظنَّة الحملِ على الفساد أكثر، فلا تكاد تفارقُها الفتنةُ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: 6 - 7]، وإنَّ غرضَ عموم النّاس في جمع الأموال أنْ يتركوها لأبنائهم من بعدهم[1]، فقُدِّمَ الأنسبُ للسّياقِ، وهو انتفاءُ النَّفع، ويمكن أنْ يكونَ التَّقديمُ لمراعاة الإفرادِ، فيكون قد قُدِّم الأنسبُ للمقام الذي يأتي فيه الإنسانُ وحيدًا.

المالُ هو الأسبقُ والأعـمُّ في الملكِ وفي الانتفاعِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَالٌ﴾ و﴿بَنُونَ﴾:

أفادَ تنكيرُ ﴿مَالٌ﴾ و﴿بَنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ الكثرةَ وعمومَ نفي النَّفع من كلِّ مالٍ وبنين، والمَعْنَى: (لا ينفعُ مالٌ من الأموال ولا ابنٌ من البنين إلّا مالٌ من هذا شأنه، وبنو من هذا شأنه، وهو من أتى اللّه بقلبٍ سليم)[2]، وهذا العمومُ يشملُ جميعَ أنواعِ الأموال وأصنافِها، ويشملُ جميعَ الأبناء من الذكور أو الإناث، أو من أبناء الذُّكور أو أبناء الإناث، مهما نزلوا، أو من الرضاع.

لا ينفعُ أيِّ مالٍ وأيِّ ولـــدٍ في الآخرةِ مهما بَلَغَ

سرُّ التَّعبيرِ بصيغة الجمع ﴿بَنُونَ﴾:

جمعَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الابن في قوله تعالى: ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ ليشملَ جميعَ الأبناءِ والبنات من الأبناء، وإنْ بعدَتْ أنسابهم، وللدَّلالة على الكثرة، أي: مهما بلغَ أبناءُ الإنسانِ كثرةً لا ينفعونه في الآخرة كما كانوا ينفعونه في الدُّنيا، إلّا إذا أتى اللّهَ بقلبٍ سليم.

مهما بلغَ أبناءُ الإنـسـانِ كـثرةً لا ينـفـعـونه في الآخرة

نوعُ الاستثناءِ في الآية:

يصحُّ أنْ يكونَ الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ متَّصلًا، وفيه وجهان أحدُهما أنْ يكون بدلًا من المحذوف أو استثناء منه، فهو في محلِّ نصبٍ على الوجهين، والتَّقدير: (لا ينفعُ

الكافرُ لا ينفعهُ مالُهُ وإنْ تصدَّق بـــه، ولا بـنـوه يـغـيـثـونـه وإنْ كانوا صلحاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 324.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 265.

مالٌ ولا بنون أحدًا إلّا من أتى...)، ويجوز أيضًا أنْ يكون بدلًا من فاعل، فهو في محلِّ رفع[1]، وبذلك يكون الاستثناءُ من عمومِ نفي النَّفع بالمال والبنين، أي: إلّا من كان ذا مال وبنين، وأعطى المال حقَّهُ، وربّى البنينَ، وأحسنَ تربيتهم، فكانوا له عملًا صالحًا دائمًا، أي: من أتى بقلبٍ سليم فينفعه ماله الذي أنفقه في الخير، وولده الصالح بدعائه؛ لأنَّه إذا مات ابن آدم؛ انقطعَ عمله إلّا من ثلاثٍ: صدقةٍ جارية، وعلم يُنتفعُ به، وولدٍ صالحٍ يدعو له، فمع المال والولد ينفعُ الإنسان إذا أَتى اللّه بقلبٍ سليم من كلِّ المفاسد في الدُّنيا، ولَمّا سُبِقَ هذا الاستثناء بنفي ﴿إِلَّا﴾ أفادَ الحصرَ في معنى الآية، فالمنتفعُ الحقيقيُّ واحدٌ هو من أتى اللّهَ بقلبٍ سليم، وقد حصلَ مِن نَسْجِ الكلام على منوال الاستثناء المتَّصل إيجازٌ بالحذف، مغنٍ عن ذكرِ كثيرٍ من الجمل[2].

من أتى الله بقلبٍ سليم تنفعه سلامةُ قلبه

ويجوزُ أنْ يكون الاستثناءُ منقطعًا بمعنى (لكن)؛ لأنَّ سلامةَ القلب ليست من جنسِ المال والبنين، ويكون المعنى: لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، لكن من أتى اللّه بقلبٍ سليم من مطامعِ المال وغطرسة البنين، تنفعه سلامةُ قلبِهِ[3]، أو لا يعتزُّ إلّا باللّه، وقد سلمَ قلبُهُ وكلُّ أحاسيسه له سبحانه[4].

وممّا يشيرُ إليه أسلوبُ الاستثناء هنا أنَّ ممّا أَكرَمَ اللّهُ تعالى به خليلَهُ، ونَبَّهَ على جلالةِ محلِّه في الإخلاصِ أنْ حَكَى استثناءَه هذا حكايةَ راضٍ بإصابته فيه في قولِه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ثمَّ جَعلهُ صِفةً له في قَولِه: ﴿*وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: 83 - 84][5].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 5371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 3/ 321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 26.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5371.
(5) الزّمخشري، الكشاف: 3/ 321.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿مَنْ﴾:

كلُّ من أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ يستحقُّ النجاةَ من الخزي

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقِ الإنسان للنَّجاةِ في يومٍ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، وهو سلامةُ قلبه، وللدَّلالة على العموم، فكلُّ من أتى الله بقلبٍ سليمٍ يستحقُّ النَّجاةَ من الخزي، وفيه كذلك لفتٌ للانتباه من خلالِ الإبهام؛ ليقعَ بعده التفصيلُ فيتمكَّن معناه من الذِّهن، وقد يكون المرادُ بـ﴿مَنْ﴾ الإشارةَ إلى إبراهيم ﷺ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وصفَهُ بمثل هذا في سورة الصافات في قوله: ﴿*وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [الصافات: 83]، أي: شيعةِ نوحٍ ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾ [الصافات: 83 - 84].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بمادة ﴿أَتَى﴾:

سلامةُ القلبِ من الشِّركِ والأخلاقِ الذَّميمة أمرٌ سهلُ التحقُّق

التَّعبيرُ بفعل أتى دون جاء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ طاعةَ الله وسلامةَ القلب من الشِّرك والأخلاق الذَّميمة أمرٌ سهلُ التَّحقُّق لا صعوبةَ فيه ولا مشقَّة، وهذا ترغيبٌ للسّامعين بقصَّة إبراهيم ودعائه والقارئينَ لكلامِ الله تعالى؛ وللإشارة كذلك إلى أنَّ دعواتِ إبراهيم ﷺ بما حوته من معانٍ كانت - لعلوِّ إيمانه وثقته بفضل الله وعطائه - تنسابُ منه بسهولةٍ ويُسر، وذلك لكون ﴿أَتَى﴾ لغةً تُستعمل في الأمور التي يُتوصَّل إليها بسهولة، أو تكون في سياقٍ تنسابُ فيه المعاني بسهولة، بخلاف المجيء فإنَّه يأتي لِما فيه صُعوبةٌ ومشقَّة، وحتى في نطق حروف الفعلين، فإنَّ ﴿أَتَى﴾ أخفُّ من (جاء)، كما أنَّ ﴿أَتَى﴾ تُستعملُ في الأزمنة الثَّلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، بخلاف (جاء) فإنَّها تأتي بالزمن الماضي فحسب[1]، ومن ثَمَّ فإنَّ استعمالَ لفظ ﴿أَتَى﴾ في الآية أنسبُ للمقام، وهو يوم القيامة الذي هو في المستقبل.

(1) الراغب، المفردات: (أتى)، والدوري، دقائق الفروق البيانية، ص: 229.

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي في قوله: ﴿أَتَى ٱللَّهَ﴾:

لمّا كان القدومُ على الله واجبَ الوقوعِ؛ جُعلَ مستقبلُه كالماضي

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ الماضي في قوله تعالى: ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مع أنَّ الإتيانَ في يوم البعث لم يقعْ بعد، وسيكون في المستقبل؛ وذلك تنبيهٌ على تحقيقِ وقوعه وتقرُّره، حتى كأنَّه قد وقع؛ إذ القيامةُ لَمّا كانتْ واجبةَ الوقوع؛ جعلَ اللهُ مستقبلها كالماضي[1]، بما يشيرُ كذلك إلى قوَّة إيمان إبراهيم ﷺ ويقينه بتحقُّق يوم البعثِ والحساب، ولو عُبِّر بصيغة المضارع؛ لَما كان فيه هذه المبالغة.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي بين آيتي الشعراء والصافات:

مِن أسلوبِ القرآنِ وبلاغته مراعاةُ السّياقِ والمقام في اختيارِ ما يناسبه من ألفاظ

في آية الشُّعراء ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ أتى، وفي آية الصافات ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: 84] عبَّر بلفظ جاء، فالفرقُ بينهما بكلمة أتى وجاء، و﴿جَآءَ﴾ [الصافات: 84] تعني: المجيءَ بمشقَّة وصعوبة، وتعني: الوصول، و﴿أَتَى﴾ تعني: القدومَ بسهولة، وأنَّه لم يصل إلى المكان المرجوِّ بعدُ.

فقد عبَّرَ بـ﴿أَتَى﴾ في آية الشعراء، وهي في سياق دعاءِ إبراهيم ربَّهُ، وقد انساب الدعاءُ على لسان إبراهيم ﷺ بسهولةٍ، وكذلك الآية تتحدَّث عن المستقبل، فهي تستثني من أتى بقلب سليم في يوم القيامة الَّذي لا ينفع فيه مالٌ ولابنون، وهذا اليوم لم يأتِ بعدُ، فناسبَ أن يُعبِّر بـ﴿أَتَى﴾؛ إذ تُستعمل في المستقبل، فلا زالَ في الأمرِ متَّسع، بينما عبَّر بـ﴿جَآءَ﴾ [الصافات: 84] في آية الصافات؛ لأنَّ الآيةَ إخبارٌ عن مجيءِ إبراهيمَ ربَّهُ بقلبٍ سليمٍ من الشِّرك وغيره من الآفات، ومخلصٍ لله في الدعوة إليه، ومستعدٍّ لبذل نفسه وكلِّ شيءٍ يملكه في سبيل رضا ربِّهِ ﷻ، وهو أمرٌ ليس بالسَّهل، وقد تحقَّق هذا الأمر من إبراهيم ﷺ، فناسب أن يعبِّر بلفظ ﴿جَآءَ﴾ [الصافات: 84].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 20/ 283.

فائدةُ الالتفاتِ في الآية:

لـفـتُ الانـتـبـاهِ إلى أنَّ الغيبَ المتعلّق بقيامِ الـسـاعـة لا يعلمه إلّا اللهُ

بدأ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ بدعاء إبراهيم عليه السلام اللّهَ عزوجل لنفسهِ بقوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي﴾، ثم تحوَّل النَّسَقُ من الخطاب إلى الغَيبة بقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى﴾؛ لأنَّه أراد في سياق الحديث أن يقرِّرَ قاعدةً عامَّة: أنَّه لا ينفعُ المرء يوم القيامة إلّا إيمانُهُ وسلامة قلبه، وكذلك أراد لفتَ الانتباهِ إلى أنَّ الغيبَ المتعلِّق بقيام الساعة والبعث من القبور، ومحاسبة النّاس، وعدم انتفاعِهم إلّا بإيمانهِم وسلامة قلوبهِم هو أمرٌ غيبيٌّ لا يعلمه إلّا اللّهُ؛ لفتًا لانتباهِ المخاطَبين وتحفيزًا لهم على الاهتمام.

سِرُّ حَملِ ﴿مَنۡ﴾ على الإفرادِ في ﴿أَتَى﴾:

كـلُّ آتـيـهِ يـومَ الـقـيـامـة فـردًا ومـسـؤولٌ عن سلامةِ قلبه

﴿مَنۡ﴾ تحتمل معنى الإفرادِ بالنَّظر إلى لفظها، ومعنى الجمع بالنَّظر إلى معناها، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ حملها على الإفراد في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾؛ لإرادةِ الجنس، ولكون الإتيانِ على اللّه يوم القيامة يكون فرادى، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ۝٩٥﴾ [مريم: 95]، وكلُّ فردٍ يحاسبُ عن نفسه، وهو مسؤولٌ عن سلامةِ قلبه بذاته، وسيحملُ وحدَهُ تبعةَ انحرافِهِ عن طريقِ الحقِّ، وسينظرُ اللّهُ إلى قلبِ كلِّ إنسانٍ على حِدة، ومن ثمَّ سلامةُ القلبِ تنفعُ صاحبها لا أحدًا غيرَهُ.

علَّةُ التَّعبيرِ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

الاسـمُ الجليلُ الـجـامـعُ لـكـلِّ صفاتِ الكمال أنسبُ مع ذكرِ القلوب

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾، فلم يقلْ: (إلّا من أتى ربَّهُ)؛ لكون الاسم الجليل أنسبَ للمقامِ والسّياق من لفظ الربوبيَّة؛ إذ المقامُ هو يومُ القيامة، وهو يومٌ عظيم مهيبٌ، يناسبهُ ذكرُ الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابة في القلوب، وهو الاسم الَّذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال والقدرة والعظمة، المطَّلع على القلوب وخفاياها.

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾:

الجارُّ والمجرور ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ متعلِّقان بـ﴿أَتَى﴾ أو بمحذوف حال، أي: مصحوبًا بقلبٍ سليم[1]، والمعنى: (لا ينفعُ مالٌ ولا بنون في يوم القيامة في حالٍ من الأحوال إلّا حالَ من أتى بقلبٍ سليم، فإنَّه ينفعه ذلك).

لا ينفعُ مالٌ ولا بنون يومَ القيامة إلّا حالَ من أتى بقلبٍ سليم

علَّةُ التَّعبيرِ بالقلب في قوله: ﴿بِقَلْبٍ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالقلب دون بقيَّةِ الجوارح في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من باب إضافة الكلِّ إلى الجزءِ؛ لكونه رئيسَهُ، فهو أشرفُ ما في الإنسان، ولأنَّ الجوارحَ تابعةٌ للقلبِ، فتسلمُ بسلامته، وتفسُد بفساده[2]، إذ الفسادُ بالجوارح لا يكون إلّا عن قصدٍ فاسدٍ بالقلب، فإنِ اجتمع مع ذاك جهلٌ؛ فقد عَدِمَ السَّلامةَ من وجهين[3]، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فسَدَتْ؛ فسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهيَ القَلْبُ»[4].

الجوارحُ تابعةٌ للقلب تسلَمُ بسلامته وتفسُدُ بفساده

سرُّ وصف القلب بقوله: ﴿سَلِيمٍ﴾:

قيَّد البيانُ القرآنيُّ القلبَ الذي ينفع صاحبَهُ بصفة السَّلامة في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على فضيلةِ القَلبِ السَّليم؛ لأنَّه سببٌ لاستفادةِ الإنسانِ مِن مالِه وبَنيه، وهذا بِناءً على أنَّ الاستثناءَ متَّصِلٌ[5]، وسلامةُ القلبِ تعني: خلوصَهُ من الشَّكِّ والشِّرك، ومن الكفرِ والنِّفاق، وهو المأثورُ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن سيرين[6]،

القلبُ الصَّحيحُ الخالصُ من الشِّركِ والشَّكِّ هو الذي ينفعُ صاحبه

(1) درويش، معاني القرآن وبيانه: 7/ 89.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 248.
(3) الجصاص، أحكام القرآن: 5/ 214.
(4) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: الإيمان، الحديث رقم: (52).
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 159.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 19/ 101، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 19/ 319.

ولابن القيِّم في معنى القلب السَّليم كلامٌ قيِّمٌ، حيث يقول: "هو الذي سلِمَ من أنْ يكون لغير اللّٰهِ فيه شركةٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصتْ عبوديَّته للّٰه تعالى: إرادةً ومحبَّةً وتوكُّلًا وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، وخلصَ عمله وأمره كلُّه للّٰه تعالى"[1]، ولا يكونُ سَليمًا إذا كان حَقودًا حَسودًا، مُعجَبًا مُتكَبِّرًا، وقد شرَطَ النبيُّ ﷺ في الإيمانِ أنْ يحِبَّ لأخيه ما يحِبُّ لنَفْسِه، واللّٰه الموفِّقُ برَحمتِه[2].

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ السَّلامة إلى القلب:

إسنادُ السَّلامة إلى القلبِ في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ السّلامةَ من الكفرِ والشِّرك والنِّفاق وغيرِها من الآفات وصفٌ لصاحبها، لكنْ محلُّه القلبُ كالإيمان، ولذا أسندَ السَّلامة إليه[3].

السَّلامةُ من الكفرِ وصفٌ لصاحبِهِ محلُّه القلب

دلالةُ صيغةِ فعيل في ﴿سَلِيمٍ﴾:

عبَّر النَّظمُ الحكيم عن صفة السَّلامة للقلب في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ بصيغةِ مبالغةٍ على وزنِ فعيل؛ لإفادةِ بلوغ الغاية في سلامة القلب، فالقلب السليمُ: هو القلبُ الذي قد صارتِ السَّلامةُ صفةً ثابتةً له، وأيضًا فإنَّه ضدُّ المريضِ والسَّقيمِ والعليلِ، أي: جاءَتْ على هذا المثالِ؛ لأنَّه للصِّفاتِ، كالطَّويلِ والقصيرِ والظَّريفِ[4]، وفي هذا كلِّه حُسنُ انتقاءِ اللَّفظ ودقَّةِ الوضع، ممّا زادَ المعنى قوَّةً، وجعل العبارةَ جزلةً خاليةً من المنافرة، ومختصرةً بما أضفى عليها إشراقًا ورونقًا.

المبالغةُ في سلامةِ القلبِ حتى صارتْ صفةً ثابتةً له

دلالةُ التَّنكير في قوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾:

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَي ﴿بِقَلْبٍ﴾ و﴿سَلِيمٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا

قلبٌ سَلِم من أيِّ مرضٍ يغيِّره عن الفطرةِ التي فطره اللهُ عليها

(1) ابن القيم، التّفسير القيم، ص: 394.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 459.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 264.
(4) ابن القيم، إغاثة اللهفان: 1/ 7.

مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيم والتَّفخيم والتَّشريف لهذا القلب، ولصفة السَّلامة فيه، والتي بلغتِ الغاية من السَّلامة، فهو قلبٌ سَلِم من أيِّ مرضٍ يغيِّره عن الفطرةِ التي فطره اللّهُ عليها، وهي الإسلامُ الذي رأسه التَّوحيدُ، والاستقامةُ على فعل الخير، وحفظُ طريق السُّنَّة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخزي والخذلان:

الخِزيُ هو ذلٌّ مع افتضاح[2]، وهو العيبُ التي تظهرُ فضيحته، ويلزمُ الاستحياء منه[3]، وقيل: أصلُه الإبعادُ، فقولهم: أخزاهُ اللّه، أي: أَبْعَدَهُ ومَقَتَهُ، وقولهم خَزيَ الرَّجُلُ: اسْتَحْيا مِنْ قُبْحِ فِعْلِهِ خَزايَةً، فهو خَزْيانُ، وذلك أَنَّهُ إذا فعل ذلك، واسْتَحْيا؛ تَباعَدَ ونَأَى[4]، وقيل: أصلهُ من قولهم: خزيَ الرَّجلُ: لحقهُ انكسارٌ إمّا من نفسه أو من غيره[5]، ومن معاني الخِزْي أيضًا: السّوءُ، والهوانُ، والفضيحةُ، والقهر، وقد يكون بمعنى الهَلاكِ والوُقوعِ في بَلِيَّةٍ[6]، وأمّا الخذلانُ؛ فهو تركُ النَّصرِ ممَّن يُتوقَّع منه ذلك[7]؛ إذ أصلُه يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ والقُعودِ عَنْهُ، فالخِذْلانُ: تَرْكُ المَعونَةِ والنُّصْرَةِ، وخِذْلانُ اللّه للعبد: ألّا يعصمَهُ من السّوءِ والشُّبَه فيقعَ فيهما، والخاذِلُ ضدُّ النّاصر[8]، ولهذا ناسبَ استعمال لفظِ الخزي لا الخذلان؛ إذ دعاءُ إبراهيم عليه السلام بعدم الخزي يَقصد منه ألّا يلحقه أيُّ انكسارٍ أو

الـخِـزْيُ ذلٌّ وانكسارٌ وحياءٌ من الافتضاح، والـخُـذلان تركُ المعونة والنُّصرة ممَّن يُتوقَّع منه ذلك

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 57.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 250.
(3) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 201.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (خزي).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خزي).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (خزى).
(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خذل).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خذل).

افتضاحٍ بسببِ كُفر أبيه، ولا يصحُّ استعمالُ لفظ الخذلان؛ إذ اللّهُ سبحانه لا يمكن أنْ يخذل رسلَهُ، أو أنْ يترك نصرتهم.

الإتيان والمجيء:

الإتيانُ مجيءٌ بسهولة

الإتيانُ هو مجيءٌ بسهولة، ومنه قيلَ للسيل المارِّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ[1]، فالإتيانُ لِما فيه يُسرٌ، ويُعبَّر به عن سهولةِ الفعلِ وسرعته، وأمّا المجيءُ؛ فيُستعمل فيما ثقلَ وعظم شأنه، ولِما فيه صعوبةٌ ومشقَّة، والمجيءُ أعمُّ من الإتيان؛ لأنَّ الإتيانَ قد يُقال باعتبارِ القصدِ، وإنْ لم يكنْ منه الحصول، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصول[2]، أي: المجيءُ هو تمامُ الإتيان، فإنَّ الإتيانَ إذا اكتملَ، وبلغَ مقصده من مكان أو زمان أو شخص؛ أصبحَ مجيئًا، والإتيانُ يُقال للمجيء بالذاتِ وبالأمر وبالتَّدبير، ويُقال في الخير وفي الشرِّ، وفي الأعيان والأعراض[3]، والمجيءُ يُقال في الأعيانِ والمعاني، ولِما يكون مجيئُه بذاته وبأمره، ولمن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا[4]، ومن هنا ناسبَ التَّعبيرُ بالإتيان دون المجيء؛ إذ الإتيانُ على اللّه بقلبٍ سليم لم يحصلْ بعدُ.

الإتيانُ مجيءٌ بسهولة، ويقال لما لم يحصل بعدُ، فهو أنسبُ مع الإتيانِ على الله بقلبٍ سليم

القلب والفؤاد:

القلبُ خالصُ الشيءِ وشريفه

القلبُ من (قلب)، وأصلُه يدلُّ على رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جِهةٍ، ويدلُّ على خالصِ الشَّيءِ وشريفه (باطنُ الشيءِ ولُبُّه)[5]، ومنه قلبُ الإنسان، وهو الجارحةُ والمُضغةُ المعروفةُ التي في الصَّدر، فهي أشرفُ ما في الإنسان وأخلصه[6]، وسُمّي بذلك لكثرةِ تقلُّبه[7]، ويعبَّرُ

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) الزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قلب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (القلب).

بالقلبِ عن العقلِ، وعن المعاني التي تختصُّ به من الرّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك[1]، وأمّا الفؤادُ؛ فمِن (فَأَدَ)، وأصله يدلُّ على حُمّى وشِدَّةِ حرارةٍ، وسُمّيَ بذلك لحرارته[2]، والفُؤادُ يُقال له: فُؤادٌ؛ إذا اعتُبِرَ فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوقُّد[3]، وقيل: أصلُهُ من الحركةِ والتَّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ؛ لأنَّه ينبضُ، ويتحرَّك كثيرًا[4]، وقيل: الفؤادُ: هو وعاءُ القلب، وقيل: داخله، وقيل: غشاؤه، والقلبُ: حبَّته[5]، والقلبُ أخصُّ من الفؤادِ لحديث: «أتاكم أهل اليمن هم أرقُّ قلوبًا وألين أفئدة»[6]، فوصفَ القلوبَ بالرِّقَّة والأفئدةَ باللين[7]، وقد ناسبَ هنا التَّعبيرُ بالقلب دون الفؤاد؛ لأنَّ الحديث عن سلامة القلب من الشِّرك والنِّفاق والآفات التي محلُّها القلبُ الذي هو محلُّ المعاني والأفكار والمعتقدات، وليس الكلام عن التوقُّد وحرارة القلب.

(1) الرّاغب، المفردات: (قلب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 289.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد).
(3) الرّاغب، المفردات: (فأد).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (فأد).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (فأد).
(6) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، رقم: (4388).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (القلب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 289.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»